



سؤال تطرحه أطراف عدّة، بعضها بحسن قصد وبعضها بسوء طوية. وتضارب يريد بعض الخبّاء أن يسوقه في الفكر الإسلامي ليشوّهوا جمال الإسلام، ويغطّوا به على حقيقة الرسالة. بل بات اليوم قضية الساحة الإسلامية، تضيّع الجهود فيه، ويلوّك فيه أنصار المتعلمين والجهلة أقوالاً بلا خطاطف ولا زمام! ومنهجية الإسلام في التفكير تبدأ من الأسس الراسخة:

ال المسلمات والبدويات والمحاكمات، لتبقى دائرة الاختلاف ضيقة وباب التنازع مغلقاً. وهنا يجب أن نقرّ هذه المسلمات والبدويات والمحاكمات التي تحيط بهذه القضية التي تتعلق بالإنسان وجوداً و هوية.

- أولى هذه المسلمات أن الله تعالى خلق الإنسان مخيراً، له عقل يُمكّنه من العلم والمعرفة، ومشيئة وإرادة تُمكّنه من القول والفعل. ووفقاً لهاتين الموهبتين التي وهبها الله له: خطابه وكلفه. ولو كان الإنسان مسيراً بلا وعي، منزوع الإرادة والمشيئة، لما كان لمخاطبته وتكليفه مناسبة! بل لم يكن في محاسبته ومعاقبته أي عدل، فضلاً عن أي حكمة أو معنى! وهذا يعني أن الإنسان حرّ بالأساس، وإن كان من حيث المعنى الكلي عبداً لله، بمعنى العبودية الكونية.

ولا يدخل الإنسان في عبودية الله الشرعية إلا بإرادته ومشيئته الخاصة المستقلة، دون إكراه. فالحرية المثبتة للإنسان لا تنفي العبودية (الكونية) المثبتة للإنسان، كما لا تستلزم العبودية (الشرعية) المخاطب بها ما لم يتلزمها.

يقول سيد قطب: "إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة، مزدوج الاستعداد، مزدوج الاتجاه، ونعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبعه تكوينه (من طين الأرض ومن نفحة الله فيه من روحه) مزود باستعدادات متتساوية للخير والشر، والهدى والضلال.

فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر. كما أنه قادر على توجيهه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء. وأن هذه القدرة كامنة في كيانه، يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة: ((وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلَّهُمَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)).. ويعبر عنها بالهداية تارة: ((وَهَدَيْنَا النَّجَدَيْنِ)).. فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد.. والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توظّف هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك. ولكنها لا تخلقها خلقاً. لأنها مخلوقة فطرة، وكائنة طبعاً، وكامنة إلهاماً.

وهناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان. هي التي تناط بها التبعية. فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها، وتغليبه على استعداد الشر فقد أفلح. ومن أظلم هذه القوة وخباها وأضعفها فقد خاب: ((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)).

وهنالك إذن تبعة متربة على منح الإنسان هذه القوة الوعائية القادرة على الاختيار والتوجيه. توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو في حقل الخير وفي حقل الشر سواء. فهي حرية تقابلها تبعة، وقدرة يقابلها تكليف، ومنحة يقابلها واجب. ورحمة من الله بالإنسان لم يدعه لاستعداد فطرته الإلهامي، ولا للقوة الوعائية المالكة للتصرف، فأعانه بالرسالات التي تضع له الموازين الثابتة الدقيقة، وتكشف له عن موحيات الإيمان، ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق من حوله، وتجلو عنه غواشي الهوى فيبصر الحق في صورته الصحيحة.. وبذلك يتضح له الطريق وضوحاً كاشفاً لا غيش فيه ولا شبهة فتتصرف القوة الوعائية حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذي تختره وتسير فيه.

وهذه في جملتها هي مشيئة الله بالإنسان. وكل ما يتم في دائرتها فهو محقق لمشيئة الله وقدره العام.

هذه النظرة المجملة إلى أقصى حد تتبثق منها جملة حقائق ذات قيمة في التوجيه التربوي:

فهي أولاً ترفع بقيمة هذا الكائن الإنساني، حين تجعله أهلاً لاحتمال تبعة اتجاهه، وتنمّحه حرية الاختيار (في إطار المشيئة الإلهية التي شاءت له هذه الحرية فيما يختار)؛ فالحرية والتبعية يضعان هذا الكائن في مكان كريم، ويقرران له في هذا الوجود منزلة عالية تليق بالخلية التي نفع الله فيها من روحه وسوهاها بيده، وفضلها على كثير من العالمين.

وهي ثانياً تلقي على هذا الكائن تبعة مصيره، وتجعل أمره بين يديه (في إطار المشيئة الكبرى كما أسلفنا)؛ فتثير في حسه كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوى، وهو يعلم أن قدر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)). وهي تبعة ثقيلة لا يغفل صاحبها ولا يغفو!

وهي ثالثاً تشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلهية الثابتة، ليظل على يقين أن هواه لم يخدعه، ولم يضلله، كي لا يقوده الهوى إلى المهلكة، ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه. وبذلك يظل قريباً من الله، يهتدي بهديه، ويستضيء بالنور الذي أمنه به في متأهبات الطريق! ومن ثم فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه من تزكية النفس وتطهيرها، وهو يغتسل في نور الله الفائض، ويتطهر في هذا العباب الذي يتدفق حوله من ينابيع الوجود^[1].

- **أما المسلمـة الثانية فهي أن الله حرم الظلم والطغيان عموماً، في كل وقت وفي كل حال ومع كل أحد.** ولم يجز الله تعالى بحال ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وإن كان كافراً؛ بل نهى -سبحانه- عن الظلم عباده أجمعين: (إني حرمـت الظلم على نفسي، وجعلـته بينـكم محرماً، فلا تظالموا)^[2].

وقد أمر سبحانه برفع الظلم عن عباده جميعاً.. مؤمنهم وكافرـهم. فإذا تمكـن المسلمـ من ذلك وجـب عليهـ بل إن المقصودـ من إقـامة الدولة الإسلاميةـ مع بقاءـ الكـفارـ مـحتـفـظـينـ بـمعـتقـدـاتـهـمـ وـشـعـائـرـهـمـ وـشـرـائـعـهـمـ الـخـاصـةـ (ـفـي عـقدـ الجـزـيـةـ)ـ هوـ منـعـ ظـلـمـ بعضـهـمـ أوـ ظـلـمـهـمـ لـمـنـ خـالـفـهـمـ، لأنـ الـظـلـمـ قـرـينـ الـكـفـرـ عـادـةـ.

- **المسلمـة الثالثـةـ أنـ النـفـسـ البـشـرـيةـ لاـ يـمـكـنـ أـنـ تـتـلـقـيـ الإـيمـانـ مـعـ غـيـابـ الشـرـوطـ الذـاتـيـةـ وـالـمـوـضـوـعـيـةـ لـذـكـ؛ـ وـمـنـ ثـمـ فـإـنـهاـ قدـ لاـ تـتـقـبـلـهـ وـتـرـفـضـهـ،ـ لـمـ قـبـيلـ التـكـبـ وـالـجـحـودـ وـالـإـعـارـضـ وـلـكـ مـنـ قـبـيلـ وـجـودـ الـحـائـلـ الـذـيـ يـمـنـعـهاـ مـنـ إـدـراكـ حـقـيقـةـ الإـيمـانـ أـوـ الشـعـورـ بـالـأـمـانـ عـنـ دـخـولـهـ فـيـهـ.ـ وـلـهـذاـ فـإـنـ اللـهـ شـرـعـ توـفـيرـ كـلـ الشـرـوطـ الـضـرـوريـةـ لـلـتـلـقـيـ وـالـقـبـولـ كـوـنـاـ وـقـدـراـ.ـ فـإـنـهـ تـعـالـىـ لـمـ يـبـعـثـ رـسـلـهـ مـنـ الـكـذـبـ أـوـ الـخـائـنـ أـوـ الـمـتـهـمـينـ فـيـ عـقـلـهـ أـوـ أـمـانـهـمـ أـوـ شـرـفـهـمـ،ـ لـأـنـ فـيـ هـذـاـ قـيـامـ مـانـعـ لـلـتـلـقـيـ وـالـقـبـولـ.ـ ثـمـ إـنـهـ سـبـانـهـ أـمـرـ رـسـلـهـ بـالـرـفـقـ وـالـلـيـنـ وـالـحـكـمـ وـالـتـرـجـ،ـ وـكـلـ مـاـ مـنـ شـأـنـهـ أـنـ يـجـذـبـ الـمـدـعـوـ لـلـتـلـقـيـ عـنـ رـبـهـ وـالـقـبـولـ مـنـهـ.ـ وـكـذـلـكـ الشـأـنـ فـيـ كـتـبـهـ،ـ وـفـيـ أـمـرـهـ وـنـهـيـهـ وـخـبـرـهـ.ـ فـإـذـاـ مـاـ تـخـلـفـ الـمـقـدـمـاتـ تـخـلـفـ التـائـجـ.**

- **الـبـدـهـيـةـ الـرـابـعـةـ أـنـ إـلـانـ الـإـنـسـانـ طـوـاعـيـةـ وـبـكـامـلـ وـعـيـهـ وـإـرـادـتـهـ الدـخـولـ فـيـ إـلـاسـلامـ هـوـ التـزـامـ مـنـهـ بـكـافـةـ الـمـسـؤـلـيـاتـ**

وهذا أمر طبيعي في كافة شئون الإنسان؛ لأن الحرية قرينة المسئولية. ومتى اختار الإنسان أن يكون طرفاً في عهد أو عقد أو اتفاق كان لزاماً عليه الوفاء به وتحمل تبعاته. والشرع يعلي من شأن الدين، كونه أعظم العهود وأوثق العقود، وعليه تقوم غالب تصرفات الإنسان. وهو اعتراف من الإنسان بعبوديته المطلقة لله، وخضوعه لشرعه، وتحرره من عبودية وطاعة كل من سواه. وإذا دخل الإنسان إليه اختياراً وجباً عليه التزامه في كافة شئون حياته، وعدم الخروج عنه. يقول تعالى: ((وَإذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِنْيَاتَهُ الَّذِي وَأَنْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقْوَا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)) [3]؛ وقد جاء في الحديث عن الرسول -صلى الله عليه وسلم-: (فَحَقُّ اللَّهِ أَحَقُّ) [4]، عندما سألته امرأة عن أخت لها ماتت وعليها صوم.. أتقضيه عنها.

يقول محمد متولي الشعراوي: "والذين اعترضوا على القصاص اعترضوا أيضاً على إقامة حد الردة، ورأوا فيه وحشية وكبأً للحرية الدينية التي كفأها الإسلام في قوله تعالى: ((لا إكراه في الدين))، والحقيقة أنَّ الإسلام حينما شرع حد الردة، وقال بقتل المرتد عن الدين، أراد أن يُصعب على غير المسلمين الدخول في الإسلام، وأن يُضيق عليهم هذا الباب حتى لا يدخل في الإسلام إلا من أخلص له، واطمأنَّ قلبه إليه، وهو يعلم تماماً أنه إن تراجع عن الإسلام بعد أن دخل فيه فجزاؤه القتل. فهذه تُحسب للإسلام لا عليه؛ لأنه اشترط عليك أولاً، وأوضح لك عاقبة ما أنت مُقدم عليه.

أما حرية الدين والعقيدة فهي لك قبل أن تدخل الإسلام دخولاً أولياً، لا يجبرك أحد عليه، فلك أن تظل على دينك كما تحب، فإن أردتَ الإسلام فتفكر جيداً، وتدبِّر الأمر وابحثه بكل طاقات البحث لديك؛ فليس في دين الله مجال للتجربة، إن أعجبك تظل في ساحتة، وإن لم يرق لك تخرج منه!

فإن علمتَ هذه الشروط فليس لك أن تعترض على حد الردة بعد ذلك. ولتعلم أنَّ دين الله أعز وأكرم من أن يستجدي أحداً للدخول فيه" [5].

-البداهة الخامسة هي أن الجبارية والمستبدين والطغاة دائمًا ما يقفون حائلاً بين الشعوب وبين الحرية، لا لشيء سوى لأنَّ هذه الحرية تدفعهم للخروج عن سلطانهم ورفض قهرهم.

ولذلك فهم يستعبدون الشعوب ويخلعون منهم بكل السبل طبيعتهم الإنسانية، ليجعلوا منهم جسداً بلا روح، وآلة بلا عقل، وجماداً بلا إحساس. وهذا يتم عبر منهجية في الإذلال والاستضعاف ينشأ فيها الصغير وبهرم فيها الكبير. ولذلك لم يصطلح الجبارية المستبدون -في أي حضارة- مع أي إنسان يحمل مشعل الحرية، وفي مقدمة هؤلاء الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام.

ولذلك يرى ابن كثير -رحمه الله- بعد كلام طويل، أن توفير أجواء الحرية للداعية فتح مبين. فهو يقول: "وقوله: ((وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ)) أي: كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول: ((ربِّ الله))، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تنزل معهم في المُخَاطَبَةِ فقال: ((وَإِنْ يَكُنْ كَانِبَا فَعَلَيْهِ كَذِبَهُ وَإِنْ يَكُنْ صَادِقاً يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعْدُكُمْ)) يعني: إذا لم يُظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والرأي التام والحرِم أن تتركوه وتنفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذباً فإن الله سيُجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يك صادقاً وقد آذنيتُوه يُصِيبُكُمْ بعضُ الَّذِي يَعْدُكُمْ، فإنه يتَوَعَّدُكم إن خالقُتُمُوهُ بعذابٍ في الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً، فينبغي على هذا ألا تتعَرَّضُوا له، بل اتركوه وقومه يَدْعُوهُ وَيَتَبَعُونَهُ.

وهكذا أخبر الله تعالى عن موسى -عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-. أنه طلب من فرعون وقومه الموافقة في قوله: ((وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ فَوَمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ. أَنَّ أَدُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. وَأَنَّ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي أَتَكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ. وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ. وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزُّلُونِ)) [6]، وهكذا قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

لِقُرَيْشٍ أَن يَتَرُكُوهُ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عِبَادَ اللَّهِ، وَلَا يَمْسُوْهُ بِسُوءٍ، وَأَن يَصْلُوْ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ فِي تَرْكِ أَذِيْتَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ((فُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)) [7]؛ أَيْ: إِلَّا أَلَا تُؤْذُنِي فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ، فَلَا تُؤْذُنِي وَتَتَرُكُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ. وَعَلَى هَذَا وَقَعَتِ الْهُدْنَةُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَكَانَ فَتَحًا مُبِينًا) [8].

وهنا يأتي سؤال بريء يقطع الطريق، سؤال ينبع من بعض النفوس التي يعمها "شعاع الضوء" لأنها ألغت الظلام. فهي تريد أن تريح أنفسها من عناء الأمانة وعبء المسؤولية، لتقوم بأضعف الإيمان إنكاراً! فهو هروب يلبس ثوب الورع، وخوف يظهر بصورة الحرص. آ الحرية أم الشريعة؟

وكان الحرية والشريعة نقىضان أو ضدان [9]؛ إذا وجدت الشريعة انتفت الحرية، وإذا وجدت الحرية انتفت الشريعة. وهو منطق لا تثبته الشريعة، ولم يقل به أحد من أهل العلم. بل نزلت الشرائع جميعاً لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. فإذا لم يرتضوا بالإسلام ديناً يدينون به رفع عنهم جور الحكم وتركوا على دينهم في سلم وأمان تحت مظلة الإسلام. وإن أسوأ أوجه الاستعباد التي نزعت عن الإنسان إنسانيته، وعانت منها البشرية عبر التاريخ، هي تلك التي مارسها المستبدون من الحكام على شعوبهم قهراً وإذلاً وحرماناً.

فحثاماً وجد المستبدون المستكبرون وجد الاستعباد والمستعبدون. قال تعالى وهو يخبر عن أمم أهل النار: ((إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَ لَهُمْ سَعِيرًا. حَالَدِينَ فِيهَا أَبْدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا. يَوْمَ تُقْلَبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضْلَلُنَا السَّبِيلَا. رَبَّنَا أَتَهُمْ ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنَا كَبِيرًا)) [10].

وقال سبحانه: ((.... وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوقُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُمْ أَكْنَى مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنْحُنُ صَدَّنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَا أَن نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلُنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوُنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)) [11].

إن التساؤل السابق يطرح عادة للاعتراض لا طليباً للتبيين. ويفترض أصحابه أن الأنبياء والمرسلين -عليهم الصلاة والسلام- قدموه إلى أقوامهم دعوة مجردة (عقائد وعبادات) منفصلة عن حاجاتهم وحياتهم، تقول لهم: إنكم لا تستحقون أي نصرة أو عون أو إحسان حتى تؤمنوا بالله وحده، وتلتزموا شرعه؛ فإن لم تتحققوا ذلك فلن تجدوا منا نصرة وإن ظلمتم، أو عونا وإن عجزتم، أو إحساناً! [12]

للوهلة الأولى يرتاح البعض لهذه الصورة التي تخلية وتحله من أي التزام للخلق إلا أن يؤمنوا به ويتبعلوه، وما أقل هؤلاء! في حين أن الناظر في قصص الأنبياء والمرسلين -عليهم الصلاة والسلام- في القرآن الكريم والسنة المطهرة، يجدهم قبل النبوة والرسالة وبعدها غير منقطعين عن نصرة الخلق وعنهم والإحسان إليهم، آمنوا أو بقوا على كفرهم!

وهنا تبرز شخصية أعظم قدوة نبوية يعرضها القرآن الكريم كثيراً في قصصه، إنها شخصية موسى -عليه الصلاة والسلام، النبي الموحى إليه لمواجهة أقوى حاكم مستبد في العالم في حينه؛ والذي حمل إلى فرعون وقومه مهمتان: مهمة دعوتهم للإيمان والتوحيد، ومهمة مطالبتهم بحريةبني إسرائيل. فقد بلغ حالبني إسرائيل في مصر زمن فرعون حالة من الظلم والاستعباد والإذلال الجماعي غاية في السوء والشر.

وأكثر قصص القرآن التي وردت عن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هي لهذا النبي الكريم. لهذا صور القرآن الكريم حالةبني إسرائيل تحت حكم فرعون في أكثر من مقام. قال تعالى: ((وَلَقَدْ نَجَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ. مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ)) [13]، وقال سبحانه: ((وَإِذْ نَجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ)) [14] سُوء العذاب يُذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)) [15]، وقال عز وجل: ((وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءٌ

العَذَابِ يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحِيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ)) [16]. وكان موسى يعيد تذكيرهم بنعمة النجاة من هذا الواقع: ((وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِّنْ آلِ فَرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحِيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ)) [17].

ولم يتوقف شأن التعذيب بعد مبعث موسى، ومخاطبته فرعون مطالبها إياه بإطلاق بنى إسرائيل من قيد العبودية والذل: ((ولَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانًا مُّبِينًا إِلَى فَرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّا أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُونَا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)) [18]؛ حتى شكا بنو إسرائيل لموسى هذا الواقع المرير: ((وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فَرْعَوْنَ أَتَذَرْ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَنْدَرُكَ وَالْهَنْكَ قَالَ سَنُقْتَلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقُهُمْ قَاهِرُونَ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِنُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَقْيِنَ قَالُوا أُوذِنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهَلِّكَ عَدُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)) [19].

وإذاء هذا العذاب والتكميل والإذلال والطغيان جاء التكليف الإلهي لموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- لمطالبة فرعون تكرارا بإطلاق سراح بنى إسرائيل من العبودية والعذاب والإذلال.

يقول تعالى: ((إِذْهَبَا إِلَى فَرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنَا لَعَلَّهُ يَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطْ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأَتَيْهَا فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ فَأَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْدِبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةً مِّنْ رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى)) [20].

ويقول سبحانه: ((ولَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فَرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنَّ أَدُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ وَأَنَّ لَا تَعْلُو عَلَى اللَّهِ إِنَّي أَتَيْكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَوْلَاءَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيَلَاءِ إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ وَاتَّرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ)) [21].

ويقول عز وجل: ((وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْنُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسَلَ مَعَيَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ)) [22].

الاستبداد والاستعباد:

الاستبداد منشأ الاستعباد، ولذلك قرن الله بينهما في حقيقة فرعون. فقال تعالى: ((إِنَّ فَرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْعَةً يَسْتَضِعُفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذْبَحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)) [23]، وقال سبحانه: ((ولَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ)) [24]، وقال أيضا: ((وَإِنَّ فَرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ)) [25].

ولهذا يتخاطب المستبد مع من حوله بروح الامتنان حتى وهو يحرمهم الحقوق والكرامة الإنسانية. ففي سياق توبیخ فرعون لموسى -عليه الصلاة والسلام- على جرمـه خاطبه ممـتنا عليه بتربـيته ورعاـيته: ((قَالَ أَلَمْ نُرِّبِكَ فِيْنَا وَلِيْدًا وَلَبِثَتَ فِيْنَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)) [26]. فـما كان من مـوسـى إلا أن ردـ عليه منـكـرا اـمـتنـانـهـ: ((قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الْخَالِقِينَ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَتَلَكَ نِعْمَةً تَمْنَهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَدَتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)) [27].

وبهـذا فإن مـوسـى -عليـه الصـلاـة والـسـلامـ لم يـنـزعـ نـفـسـهـ مـنـ قـوـمـهـ، وـمـمـاـ عـانـىـ مـنـهـ وـكـانـ سـبـباـ فـيـ نـشـأـتـهـ المـتـرـفـةـ فـيـ حـضـنـ فـرـعـونـ. وـالـسـيـاقـ فـيـ ظـاهـرـهـ يـوـجـهـ الجـملـةـ فـيـ إـطـارـ الـاستـنـكـارـ لـاـ إـقـرارـ كـمـاـ ذـهـبـ الـبعـضـ [28]. فـوجهـ الـاـرـتـباطـ أـنـ تـرـبـيـةـ

فرعون له لم تتم إلا بوجه من استعبادبني إسرائيل، وتعذيبهم واستباحة دمائهم، ولو لا ذلك لم يُلْقِ موسى في اليم وينفصل عن أمه وأهله وقومه، وينشأ في كنف فرعون - كما ذهب إليه عدد من أهل التفسير.[29] والتعبد هنا يعني الاستعباد والاسترقاق، ويدخل فيه القهر والتغلب، والإذلال والحبس، وتعذيبهم وقتلهم[30]. و"يقال: استعبدت فلانا وأعبدته وتعبدته وعبدته أخذته عبدا"[31].

إن مؤدى خطاب موسى لفرعون: لا مَنَّةٌ لَكَ عَلَيِ وقد "اتَّخَذْتَ قَوْمِي عَبِيدًا وَكَانُوا أَحْرَارًا"; كما قال قَتَادَة: "قال مُوسَى لِفِرْعَوْنَ: أَتَمُّنْ عَلَيَّ يَا فِرْعَوْنَ بِأَنْ اتَّخَذْتَ قَوْمِي عَبِيدًا وَكَانُوا أَحْرَارًا فَقَهَرْتُهُمْ";[32]. إنه يسأله سؤالاً استنكاريّاً: "كيف تمنَّ علىِ بالتربيّة وقد استعبدت قَوْمِي، ومنْ أَهِينَ قَوْمُهُ ذُلًّا؟ فَتَعَبِّدُكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَحْبَطْتَ إِحْسَانَكَ إِلَيَّ؟"[33]. وليس ما ذكره شيئاً بِالنِّسْبَةِ إِلَى ما فعلتَ بِهِمْ"[34]; وإن لم ينله من ذلك ما نالهم، إلا أنه لما كان منهم، فكانه وصل إلىه وحلَّ به. كما قيل: وظلم الجار إذلال المجرم[35].

قال الشنقيطي: "يعني: تعَبِّدُكَ لِقَوْمِي وَإِهَانَكَ لَهُمْ لَا يُعْتَبِرُ مَعَهُ إِحْسَانَكَ إِلَيَّ؛ لِأَنَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ"[36]. وهذا مقام لا يفرق فيه موسى بين من آمن به ومن لم يؤمن به من قومه.

هذه المعاناة الناشئة عن الاستعباد هي التي جعلت الأساس من الرسالة استنقاذبني إسرائيل. يقول الشعراوي: "والحق سبحانه وتعالى عندما أرسل موسى وهارون بأية دالة على صدقهما إلى فرعون كانت مهمتها الأساسيةأخذبني إسرائيل، وإنقاذه من طغيان فرعون، وجاءت المسألة الإيمانية تبعية، أما أصل مهمته موسى فكان: ((فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ)) [37]"[38]; "فالأصل في لقاء موسى بفرعون أن ينقدبني إسرائيل من العذاب، ثم يُبلغهم منهج الله، ويأخذ أيديهم إليه، وجاءت دعوة فرعون للإيمان ونقاشه في ادعائه الألوهية تابعة لهذا الأصل"[39]-حسب وصفه.

وإنما أرسل موسى وهارون إلى فرعون وهامان دون أهل مصر: "لَأَنَّ دُعَوَةَ مُوسَى وَأَخِيهِ إِنَّمَا كَانَتْ خَطَابًا لِفِرْعَوْنَ وَأَهْلَ دَوْلَتِهِ الَّذِينَ بِيَدِهِمْ تَصْرِيفُ أُمُورِ الْأَمَّةِ لِتَحْرِيرِ بَنِي إِسْرَائِيلِ مِنْ اسْتِعْبَادِهِمْ إِيَاهُمْ"[40]. ((أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ))[41]:

لقد جاءت مهمة إخراجبني إسرائيل من العبودية من أهم مطالب موسى لفرعون، كما تشير لها الآية السابقة. والأداء في الآية بمعنى الإرسال كما ذكره مجاهد، و"عن قتادة: قال لفرعون: علام تحبس هؤلاء القوم (يعنيبني إسرائيل)، قوم أحرار اخذتهم عبيدا، خل سبيلاهم"; وعن "ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ((أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ)), قال: يقول: أرسل عباد الله معه، يعنيبني إسرائيل، وقرأ: ((فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ)), قال: ذلك قوله: ((أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ)), قال: ردَّه إلينا".[42]

قال الثعالبي: "كَانَهُ - أَيُّ مُوسَى - يَقُولُ: أَنِ ادْفَعُوا إِلَيَّ وَأَعْطُونِي وَمَكِّنُونِي مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلِ؛ وَإِيَاهُمْ أَرَادَ بِقَوْلِهِ: عِبَادَ اللَّهِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسَ: الْمَعْنَى أَتَبْعُونِي إِلَى مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، فَعِبَادُ اللَّهِ عَلَى هَذَا مُنَادِي مَضَافٌ، وَالْمُؤْدِي هِيَ الطَّاعَةُ. وَالظَّاهِرُ مِنْ شَرْعِ مُوسَى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَنَّهُ بُعِثَ إِلَى دُعَاءِ فَرَعُوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ، وَأَنَّ يُرْسَلَ بَنِي إِسْرَائِيلُ، فَلَمَّا أَبَى أَنْ يُؤْمِنَ ثَبَّتَ الْمَكَافَحةَ فِي أَنْ يُرْسَلَ بَنِي إِسْرَائِيلُ[43]. وَيَقُولُ ذَلِكَ - كَمَا قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: "قَوْلُهُ بَعْدَ: ((وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزُّلُونَ)) [44]، وَهَذَا قَرِيبُ نَصٍّ فِي أَنَّهُ إِنَّمَا يَطْلُبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقْطًا. وَيَؤْكِدُ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ((فَأَسِرْ بِعِبَادِي)) فَيُظَهِّرُ أَنَّهُ إِيَاهُمْ أَرَادَ مُوسَى بِقَوْلِهِ: ((عِبَادَ اللَّهِ))".[45].

وقال السعدي: "قال لفرعون ومثله: أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ، يعني بهم بني إسرائيل؛ أي: أرسلوهم وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب، فإنهم عشيرتي وأفضل العالمين في زمانهم، وأنتم قد ظلمتموهم واستعبدتموهم بغير حق، فأرسلوهم ليعبدوا ربهم".[46].

ويقول عبدالكريم الخطيب: "قوله تعالى: ((أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)) هو بيان لمضمون الرسالة التي حملها

هذا الرسول الكريم إلى قوم فرعون، وهو أن يؤدوا إليه عباد الله، أي يطلقونهم، ويرسلوهم معه إلى حيث يخرج بهم من هذا البلاء الذي هم فيه.

وفي التعبير عن بنى إسرائيل بقوله: ((عِبَادُ اللَّهِ)) إشارة إلى أنهم ليسوا عبيدا لفرعون، ولا لقوم فرعون، وإنما هم عبيد الله. وهذا رسول الله يطلبهم لينقلوا من هذه العبودية للناس، إلى العبودية لله. وفي التعبير عن إرسال بنى إسرائيل مع موسى بقوله: ((أَدُوا إِلَيْيَ عِبَادَ اللَّهِ)) إشارة إلى أنهم أمانة الله في يد القوم، وأن عليهم أن يؤدوا هذه الأمانة عند طلبها.. وهذا يعني أن الضعيف أمانة في يد القوى، وأن عليه أن يرعاه ويحفظه، وألا يتضيئ إنسانيته بالقهر والبغى، فتحول في يده إلى إنسان قد فقد وجوده، إنسان قد مسخت إنسانيته فاستخدمه ذللا.. وهذا هو الضياع، الذي هو الموت بالحياة! وفي وصف موسى بالأمانة في قوله: ((إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)) إشارة أخرى إلى أنه سيحفظ أمانة الله في عباده، إذا صاروا إلى يده، وألا يتضيئهم كما يتضيئهم فرعون، بل إنه سيصلح ما أفسد فرعون منهم، ويطلب لما رماهم به من داء اغتال كل معانى الإنسانية فيهم [47].

ويقول الطاهر بن عاشور: "خطابُ الجَمَعِ لِقَوْمٍ فِرْعَوْنَ. وَالْمُرْأَةُ فِرْعَوْنٌ وَمَنْ حَضَرَ مِنْ مَلَائِكَةٍ، لَعَلَّهُمْ يُشَبِّهُونَ عَلَى فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ؛ وَلَعَلَّهُ إِنَّمَا خَاطَبَ مَجْمُوعَ الْمَلَائِكَةِ رَأَى مِنْ فِرْعَوْنَ صَلَفًا وَتَكَبَّرًا مِنَ الْإِمْتِنَالِ، فَخَاطَبَ أَهْلَ مَشْوَرَتِهِ لَعَلَّهُمْ فِيهِمْ مَنْ يَتَبَصَّرُ الْحَقَّ. وَعِبَادُ اللَّهِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا أَدُوا مُرَادًا بِهِ يَنْوِ إِسْرَائِيلَ، أَجْرِيَ وَصَفُّهُ ((عِبَادَ اللَّهِ)) تَذَكِّرًا لِفِرْعَوْنَ بِمُوجَبِ رَفِعِ الْإِسْتِعْبَادِ عَنْهُمْ؛ وَجَاءَ فِي سُورَةِ الشُّعْرَاءِ ((أَنَّ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)) فَحَصَّلَ أَنَّهُ وَصَفُّهُمْ بِالْوَصَفَيْنِ، فَوَصَّفُ عِبَادُ اللَّهِ مُبْطِلُ لِحُسْبَانِ الْقِبْطِ إِيَّاهُمْ عَبِيدًا، كَمَا قَالُوا: ((وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ)) [48] وَإِنَّمَا هُمْ عِبَادُ اللَّهِ، أَيْ أَحْرَارٌ، فَعِبَادُ اللَّهِ كِنَائِيَّةٌ عَنِ الْحُرْبَةِ. كَقَوْلِ يَشَارِيْخَاتِبُ نَفْسَهُ:

أَصَبَّحَتْ مَوَلَى ذِي الْجَلَلِ وَبَعْضُهُمْ ** مَوَلَى العَبِيدِ فَلَذْ بِفَضْلِكَ وَافْخَرِ [49]

ويضيف: "قوله: ((إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)) عَلَّهُ لِلأَمْرِ بِتَسْلِيمِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَيْهِ، أَيْ: لَأَنِّي مُرْسِلٌ إِلَيْكُمْ بِهَذَا، وَأَنَا أَمِينٌ، أَيْ: مُؤْتَمِنٌ عَلَى أَنِّي رَسُولُكُمْ. وَتَقْدِيمُ ((لَكُمْ)) عَلَى ((رَسُولٌ)) لِلإِهْتِمَامِ بِتَعْلُقِ الْإِرْسَالِ بِأَنَّهُ لَهُمْ ابْتِدَاءٌ، بِأَنْ يُعْطُوهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّ ذَلِكَ وَسِيلَةٌ لِلمَقْصُودِ مِنْ إِرْسَالِهِ لِتَحرِيرِ أُمَّةِ إِسْرَائِيلَ وَالْتَّشْرِيعِ لَهَا، وَلَيْسَ قَوْلُهُ: ((لَكُمْ)) خَطَابًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّ مُوسَى قَدْ أَبْلَغَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ رِسَالَتَهُ، مَعَ التَّبْلِيغِ إِلَى فِرْعَوْنَ قَالَ تَعَالَى: ((فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةً مِنْ قَوْمِهِ عَلَى حَوْفِ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكَةِ أَنْ يَقْتَلُهُمْ)) يوْنُس: 83، وَلِيَكُونَ امْتِنَاعُ فِرْعَوْنَ مِنْ تَسْرِيغِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبِرَّرًا لِإِنْسَلَاخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ طَاغِيَةِ فِرْعَوْنَ وَفَرَارِهِمْ مِنْ بِلَادِهِ". [50]

((فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)) [51]:

اختلاف المفسرون في تأويل هذه الآية، على مؤدى الإرسال: أهو العتق من العبودية، أم هو ترك بنى إسرائيل ليخرجوا من مصر. وإن كان الثاني -بالطبع- نتيجة للأول، وسببها في الخلاص من المعاملة التي عانى منها بنو إسرائيل في مصر، من فرعون وقبوته.

و"لا يحتمل أن يكون أول ما أتياه قالا: ((أَنَّ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)), ولكن قد سبق منها الدعاء إلى توحيد الله والإفراد له بالألوهية والربوبية؛ فإذا ترك الإجابة، فعند ذلك قالا له: ((أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ)).

وهذا يحتمل وجهين:

أحدهما: كأنه كان يمنع بنى إسرائيل عن الإسلام، وهم أرادوا الإسلام، فقا: أرسل معنا بنى إسرائيل ولا تمنعهم عن الإسلام. أو: كان يستعبدتهم، فأمره أن يستنقذهم من يديه، كقوله: ((أَنْ عَدَّتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)), ألا ترى أنه قال: ((وَلَا تُعَذِّبْهُمْ)) [52];

"أَيْ: لَا تَسْتَعْبِدُهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا بِعَبِيدٍ. لَمْ يَرْدِ إِرْسَالَهُمْ مَعَهُ. وَلَكِنْ طَلْبُ اسْتِنْقَازِهِمْ مِنَ الْعَبُودِيَّةِ، كَوْلُهُ: ((أَنْ عَبَدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ))."[53].

"وَكَانَ مُوسَى مَبْعُوثًا إِلَى فَرْعَوْنَ فِي أَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنْ يَرْسُلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَيَزِيلَ عَنْهُمْ ذُلُّ الْعَبُودِيَّةِ وَالْغَلْبَةِ، وَالثَّانِي أَنْ يُؤْمِنَ وَيَهْتَدِي. وَأَمْرٌ بِمَكَافِحتِهِ وَمَقاوِمَتِهِ فِي الْأَوَّلِ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِذَلِكَ فِي الثَّانِي عَلَى مَا بَلَغَ مِنْ أَمْرِهِ. وَبَعْثَةُ الْعِبَادَاتِ وَالشَّرْعِ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقْطُ، هَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ".[54]

وَإِرْسَالُهُمْ يَعْنِي أَنْ يُخْلِّ عَنْهُمْ، وَأَنْ يَطْلُقْ سَرَاحَهُمْ، وَلَا يَسْتَسْخِرُهُمْ فِي الْأَعْمَالِ الشَّافِةِ، وَلَا يَتَعَبَّهُمْ فِي الْعَمَلِ[55]؛ وَأَنْ يَطْلُقْهُمْ مِنِ الْاسْتَعْبَادِ وَالْاِسْتِرْفَاقِ.[56]

وَهَذَا التَّرْكُ لَهُمْ، بِمَا يُمْكِنُهُمْ مِنْ نَيلِ حَرِيتِهِمْ، كَفِيلٌ بِأَنْ يَتَلَقَّوْا إِيمَانًا.. آمَنُوا أَمْ لَمْ يُؤْمِنُوا.

لَذِكَ جَاءَ فِي بَعْضِ أَقْوَالِ أَهْلِ التَّفْسِيرِ فِي مَعْنَى الْآيَةِ: "وَلَا تَمَنَّهُمْ مِنِ الْإِيمَانِ"[57]. وَهَذَا يَتَفَقَّدُ مَعَ الْمَشْهُدِ الَّذِي ذُكِرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ حَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ دُعَوَةِ مُوسَى: ((فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرَيْةً مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتَنُهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ))[58]، وَأَنِّي لِلْجَابِرَةِ وَالْمُتَكَبِّرِينَ أَنْ يَتَرَكُوا لِلنَّاسِ حَرِيتِهِمْ فِي اعْتِقَادِهِمْ يُؤْمِنُوا بِهِ؛ ((وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذْرَكَ وَآلَهَتَكَ قَالَ سَنُقْتَلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحِيِّ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقُهُمْ قَاهِرُونَ))[59].

يَقُولُ السَّعْدِيُّ: "أَيْ: فَأَتَيَاهُ بِهِذِينِ الْأَمْرَيْنِ، دَعَوْتَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَتَخْلِصُهُمْ هَذَا الشَّعْبُ الشَّرِيفُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ قِيَدِهِ وَتَعْبِيَدِهِ لَهُمْ، لِيَتَحَرَّرُوْا وَيَمْلَكُوْا أَمْرَهُمْ، وَيَقِيمُوْهُمْ مَوْسَى شَرْعُ اللَّهِ وَدِينِهِ"[60]؛ "فَكُفَّ عنْهُمْ عَذَابَكَ، وَارْفِعْ عَنْهُمْ يَدَكَ، لِيَعْبُدُوْا رَبِّهِمْ وَيَقِيمُوْهُمْ أَمْرَ دِينِهِ"[61].

وَهَذَا لَنْ يَتَمْ فِي ظُلُمِ بَقَائِمِهِمْ تَحْتَ حُكْمِ فَرْعَوْنَ، فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ سُلْطَانَانِ فِي أَرْضٍ وَاحِدَةٍ، وَهَذَا يَقْتَضِي خَرْجَهُمْ مِنْ مَصْرَ ضَرُورَةً. يَقُولُ الْقَاسِمِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِلْآيَةِ: "أَيْ: بِإِطْلَاقِهِمْ مِنَ الْأَسْرِ وَالْعَبُودِيَّةِ، وَتَسْرِيَّهُمْ مَعَنَا إِلَى وَطَنَنَا فَلَسْطِينَ"[62]. "لَأَنْ تَخْلِصُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَيْدِي الْكُفَّارِ أَهْمَّ مِنْ دَعْوَتِهِمْ إِلَى إِيمَانٍ - كَمَا قَيْلَ"[63].

هَذَا إِذَا سَلَمْنَا بِإِيمَانِهِمْ جَمِيعًا لِمُوسَى، وَإِنْ كَانُوا عَلَى التَّوْحِيدِ أَسَاسًا وَعَلَى مُورُوثِهِمْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَيَوْسُوفَ. فَإِنَّهُ ((مَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرَيْةً مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتَنُهُمْ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ))[64]، وَمَعْنَى "الْذُرَيْةِ" هَذَا - كَمَا وَرَدَ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكِ وَقَتَادَةَ - "الْفَلِيلُ".[65]

وَهَذَا مَا افْتَرَضَهُ أَبْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ، حِيثُ قَالَ: "أَيْ: أَطْلَقُهُمْ مِنْ إِسْرَارِكَ وَقَبْضَتِكَ وَقَهْرِكَ وَتَعْذِيْكَ؛ فَإِنَّهُمْ عَبَادُ اللَّهِ الْمُؤْمِنُونَ وَحِزْبُهُ الْمُخْلَصُونَ، وَهُمْ مَعَكَ فِي الْعَدَابِ الْمُهِينِ"[66].

فِي حِينَ افْتَرَضَ سِيدُ قَطْبٍ خَلَافَ ذَلِكَ: "فِي هَذِهِ الْحَدُودِ كَانَتْ رِسَالَتَهُمَا إِلَى فَرْعَوْنَ[67]: لِاستِنْقَازِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالْعُوْدَةُ بِهِمْ إِلَى عَقِيَّدَةِ التَّوْحِيدِ، وَإِلَى الْأَرْضِ الْمَقْدِسَةِ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ أَنْ يَسْكُنُوهَا، إِلَى أَنْ يَفْسُدُوْا فِيهَا، فَيَدْمِرُهُمْ تَدْمِيرًا"[68]. وَيَقُولُ فِي مَوْطَنِ آخَرَ: "إِنَّمَا كَانَ رَسُولًا إِلَيْهِمْ لِيَطْلُقَ إِلَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِيَعْبُدُوْا رَبِّهِمْ كَمَا يَرِيدُوْنَ. وَقَدْ كَانُوا أَهْلَ دِينٍ مِنْذُ أَبِيهِمْ إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ يَعْقُوبُ أَبُو يَوْسُفٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَبَهَتَ هَذَا الدِّينُ فِي نُفُوسِهِمْ، وَفَسَدَ عَقَائِدُهُمْ فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مُوسَى لِيَنْقَذَهُمْ مِنْ ظُلْمِ فَرْعَوْنَ وَيَعْيَدَ تَرْبِيَّهُمْ عَلَى دِينِ التَّوْحِيدِ"[69]. فَهُوَ يَرِى أَنَّهُمْ قَدْ انْحَرَفُوا فِي التَّوْحِيدِ وَفَسَدَ عَقَائِدُهُمْ.

وَالظَّاهِرُ كَمَا مَرَّ مَعَنَا سَابِقًا أَنَّ "الْمَرَادُ بِالْإِرْسَالِ إِطْلَاقُهُمْ مِنَ الْأَسْرِ وَالْقَسْرِ، وَإِخْرَاجُهُمْ مِنْ تَحْتِ يَدِهِ الْعَادِيَّةِ، لَا تَكْلِيْفُهُمْ أَنْ يَذْهَبُوْا مَعَهُمَا إِلَى الشَّامِ"[70]. وَأَنَّهُ لَمَّا اسْتَحَالَ تَحْقيقُ هَذَا الْأَمْرِ، وَظَهَرَتْ نَوَايا فَرْعَوْنَ الْعَدَوَانِيَّةُ فِي الْقَضَاءِ عَلَى مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، جَاءَ التَّوْجِيهُ الرَّبَّانِيُّ: ((فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هُؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ. فَأَسَرَّ بِعِبَادِيِّ لِيَلَّا إِنْكُمْ مُتَّبِعُونَ))[71].

وَمُسْتَنِدٌ هَذَا إِلَرْسَالِ وَإِطْلَاقِ كُونِهِمْ أَحْرَارًا: "يَقُولُ: وَخَلَ سَبِيلَهُمْ فَإِنَّهُمْ أَحْرَارٌ وَلَا تَسْتَعْبِدُهُمْ"[72]، "فَأَطْلَقَ حَرِيَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

ليعبدوا ربهم في أرض الله الواسعة، ويعودوا معنا إلى الأرض المقدسة فلسطين"[73]. ((وَلَا تُعَذِّبْهُمْ)) "لأنهم أحراز"[74]. وفي حين كان العذاب يحيط بآل فرعون، ويعلمون أن المخرج من قبل إله موسى، كانوا يقدمون هذا الوعد له: ((قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهْدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجَزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيل)[75]، وبذلك يتضح أن مضمون دعوة موسى -عليه الصلاة والسلام- لفرعون وقومه التوحيد والإيمان، وإطلاق سراحبني إسرائيل من العبودية، كما عرفوها هم بأنفسهم! "وَقَدْ كَانُوا حَابِسِينَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عِنْدَهُمْ يَمْتَهِنُوهُمْ فِي الْأَعْمَالِ"[76].

يقول الرازي: "وقوله: ((وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيل))، كانوا قد أَخْدُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْكَدِ الشَّدِيدِ، فَوَعَدُوا مُوسَى -عليه السلام- على دُعَائِهِ يَكْشِفُ الْعَذَابَ عَنْهُمُ الْإِيمَانَ بِهِ، وَالتَّخْلِيَةَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِرْسَالُهُمْ مَعَهُ يَذَهَّبُ بِهِمْ أَيْنَ شَاءَ"[77]. ويقول أبو حيان: "وفي قوله ((لَنُؤْمِنَ لَكَ)) دَلَالةً على أَنَّهُ طَلَبَ مِنْهُمْ إِرْسَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَقَدَّمُوا إِيمَانَ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ النَّاثِئُ مِنْهُ الطَّوَاعِيَةُ"[78].

سنة الجبارية الظالمين:

إن استعباد الخلق، إذلاً واسترقاقا، سنة الجبارية الظالمين على مر العصور، وليس فرعون إلا أنموذجاً لهذه العينة. يقول سيد قطب: "ويظهر أن استعبادبني إسرائيل كان إجراء سياسيا خوفاً من تكاثرهم وغلوتهم. وفي سبيل الملك والحكم لا يترجح الطغاة من ارتکاب أشد الجرائم وحشية وأشنعها ببربرية، وأبعدها عن كل معاني الإنسانية، وعن الخُلُق والشرف والضمير. ومن ثم كان فرعون يستأصلبني إسرائيل، ويُذَلّهم بقتل المواليد الذكور واستبقاء الإناث، وتسيير الكبار في الشاق المهلك من الأعمال. فلما قال له موسى وهارون: ((أَرْسَلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْذِبْهُمْ)). قال: ((أَجِئْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى))؛ لأن إطلاقبني إسرائيل تمهد للاستيلاء على الحكم والأرض"[79]. لقد رأى فرعون وملاهه في دعوة موسى ومتطلباته بتحريربني إسرائيل قلباً للمعادلة، وتغييراً في مسار الأمور، وشعروا بخطورة الموقف بعد إيمان السحرة لموسى، فاستنكروها واعتراضوا عليها، وقالوا: ((.. أَنْؤُمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ))[80]:

وفي معنى عابدون أقوال عدة، منها:

أنهم طائعون خاضعون: أي منقادون لأوامتنا ونواهينا، فلناعليهم الرئاسة والسلطان.
 وأنهم خدم مملوكون: فهم مستعبدون على وجه الرق.
 وأنهم مُسْتَدْلُون: استضعافاً وتحقيراً، فهم يعملون في الأشغال الشاقة والمهن المستفجحة.
 والبعض ذهب إلى أنهم كانوا عابدين لفرعون وآلها القبط على الحقيقة.[81]

وأيًّا كان المعنى، فسؤالهم هنا على صيغة الاستنكار! كيف تكون تابعين بعد أن كنا متبعين؟ وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا؟ ونظير قولهم هذا قول قوم نوح لنوح -عليه الصلاة والسلام: ((أَنْؤُمِنُ لَكَ وَاتَّبَعْكَ الْأَرْنَاؤْنَ؟!)), ((وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ)).

فاستكَبَرُوا عن الانقياد، وعن إرسالبني إسرائيل مع موسى، "وتحrirهم من تلك العبودية"[82]. وبدأ التحرير والتذير: ((وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمٍ فَرَعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَآلَهَتَكَ قَالَ سَنُقَاتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحِبِي نِسَاءَهُمْ وَلَأَنَا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ))[83].

وفي هذا الخطاب إغراءً لفرعون بـموسى وقبوته، وتحريضً على قتلهم وتعذيبهم، حتى لا يكون لهم خروج عن دين فرعون.

والملخص بقوله "من أتبعه منبني إسرائيل، وإفسادهم دُعاوُهُمُ النَّاسُ إِلَى مُخَالَفَةِ فِرْعَوْنَ وَتَرَكَ عِبَادَتَهُ". وهذا التحرير
ليكون ذلك أبغى عليهم، إذ هم الأشراف وبترك موسى وقومه بمصر يذهب ملكهم وشرفهم". [84]

وقد قرأ الجمهور ((ويذرك)) بالنسب، وذكر فيها ثلاثة أوجه:

أًحدها: أن يكون قوله: ((ويذرك)) عطفا على قوله: ((إِلْيُسِيدُوا)), لأن إذا تركهم ولم يمنعهم كان ذلك موديا إلى تركه وترك
آلهته، فكانه تركهم لذلك.

وثانيها: أنه جواب للاستفهام بالواو،.. والتقدير: أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض فيندركوا آلهتك.

قال الزوج: والمعنى: أتذرون منك أن تذرن موسى وأن يدرك موسى؟

وثالثها: النسب بإضمار أن، تقديره: أتذر موسى و القوم ليفسدوا وأن يدركوا آلهتك" [85].

وقرئ ((ويذرك)) بالرفع. قيل: عطفا على أتذر، بمعنى أتذر ويدرك، أي أطلق له ذلك، أو على الاستثناء، أو على الحال على
تقدير: وهو يدرك [86].

وكان ابن عمر ينكر قراءة العامة، ويقرأ ((إلهتك)) أي: عبادتك، ويقول: إن فرعون كان يعبد ولا يعبد. وقال ابن عباس قوله:
((ويذرك وإلهتك)) قال: يترك عبادتك. وكذلك قال مجاهد. وهذا ما كان يخشاه فرعون: ((إني أخاف أن يبدل دينكم)), والدين
هنا بمعنى: السلطان، ومنه قول زهير:

لِئِنْ حَلَّتْ بِجَوِّ فِي بَنِي أَسَدٍ *** فِي دِينِ عَمْرٍ وَحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُ [87]

إنهم استثاروا فرعون بقولهم: "أَتَنْرُكُ مُوسَى وَقَوْمَهُ أَحْرَارًا أَمْنِينَ، لَتَكُونَ عَاقِبَتَهُمْ أَنْ يُفْسِدُوا قَوْمَكَ عَلَيْكَ فِي أَرْضِ مِصْرَ،
يُأْدِخَ الْهِمَّ فِي دِينِهِمْ، أَوْ جَعَلَهُمْ تَحْتَ سُلْطَتِهِمْ وَرِيَاسَتِهِمْ" [88]؛ ودفعوه لسياسة القتل والإذلال التي لا يحسن الجباره سواها
لكسر إرادة الشعوب: ((قَالَ سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقُهُمْ قَاهِرُونَ))!

وهذا العذاب الأليم إنما هو متوجه للذين آمنوا لموسى دون من سواهم: ((فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَاتَلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)) [89]؛ لأن استدعاء بني إسرائيل جميعا مع حداثة الدعوة طيش
وغباء لا يرتكبه الملا، لأنه يوجد الخلاف في صفات المجتمع المستفيد من هذه الطبقة أولا، ويؤلب بني إسرائيل جميعا ليقفوا
في صفة موسى عصبية، ما قد يزعزع من استقرار الأمن ثانيا.

واختصاص الأبناء دون البنات "لِلَّذِلِّ يَنْشِيُوا عَلَى دِينِ مُوسَى فَيَقُولُونَ بِهِمْ" [90]، و"لِيَصُدُّوْهُمْ بِذَلِكَ عَنْ مُتَابَعَةِ مُوسَى
وَمُظَاهَرَتِهِ" [91]، و"لِيَقْرَأَ رَهْطُهُ الَّذِينَ يَقْعُدُونَ إِلَيْهِمْ" [92]، و"لِإِهَانَةِ هَذَا الشَّعْبِ، وَلِكِي يَتَشَاءَمُوا بِمُوسَى - عَلَيْهِ
الصلوة والسلام؛ ولهذا قالوا: ((أَوْنِبَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي
الْأَرْضِ فَيَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)) [93]؛ خاصة وأن "استحياء المرأة، هو تعرّضها لما يخشى حياءها أو يجرّه.. وذلك باستدعاء
حيائنا، حين تواجه بما تنكره الحرّة وتتأبه العفيفة" [94].

وقد بلغ الغرض بفرعون - وهو من هو في السلطة - لاستئذان قومه بقتل موسى: ((وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرُونِي أَقْتُلُ مُوسَى وَلَيَدْعُ رَبَّهُ
إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)) [95].

إن أول خطوة يخطوها الجباره في مواجهة دعاء التغيير هي إبادتهم وإيذاء من يؤمن برسالتهم، ليكونوا عبرة لكل من يعتبر،
ويتراجع كل من ينشد التغيير أمام ضخامة التكاليف طالبا للسلامة.

وفي هذه الحالة لا يملك موسى وبني إسرائيل أي حيلة، ويبقى العون الإلهي هو المخرج: ((فَدَعَا رَبُّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرُمُونَ.
فَأَسَرَّ بِعَيْدَارِي لَيْلًا إِنْكُمْ مُتَّبِعُونَ. وَاتْرُكُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنُدٌ مُغْرَقُونَ. كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرْقُوعٌ وَمَقَامٌ كَرِيمٌ. وَعَمَّةٌ
كَانُوا فِيهَا فَاكِهَيْنَ. كَذِلِكَ وَأَوْرَنَتَهَا قَوْمًا آخَرِينَ. فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ. وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي

الطغيان منبت الفساد:

يقول سيد قطب: "((الَّذِينَ طَعَوا فِي الْبَلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)).. وليس وراء الطغيان إلا الفساد. فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء. كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة. ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، المُعْمَر الباني، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال. إنه يجعل الطاغية أسيير هواء، لأنَّه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد، ويتخذ له مكاناً في الأرض غير مكان العبد المستخلف؛ وكذلك قال فرعون: ((أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعُلَى)) عندما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقيوح، وهو فساد أي فساد.

ثمَّ هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء، مع السخط الدفين والحدق الكظيم، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية، وملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية.

والنفس التي تستدل تأسن وتنتفخ، وتتصبح مرتعاً لديدان الشهوات الهاشطة والغرائز المريضة. وميداناً للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك. وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع، وهو فساد أي فساد.

ثمَّ هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة، لأنَّها خطر على الطغاة والطغيان. فلا بد من تزييف للقيم، وتزوير في الموازين، وتحريف للتصورات كي تقبل صورة البغي البشعة، وترأها مقبولة مستساغة. وهو فساد أي فساد" [97].

لقد "أَفْسَدَ ظُلْمُ الْفَرَاعِنَةِ فِطْرَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ، وَطَبَعَ عَلَيْهَا طَبَاعَ الْمَهَانَةِ وَالذُّلِّ، وَقَدْ أَرَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مَا لَمْ يُرِكَّهُ" من الآيات الدالة على وحدانية وقدرته وصدق رسوله -موسى عليه الصلاة والسلام، وبين لهم أنَّه أخرجهم من مصر ليُنْقِذُهُمْ مِنَ الذُّلِّ وَالْعُبُودِيَّةِ وَالْعَذَابِ إِلَى الْحُرْبِيَّةِ وَالْإِسْتِقْلَالِ وَالْعِزِّ وَالنَّعِيمِ، وكأنُوا على هذا كُلُّهِ إِذَا أَصَابَهُمْ نَصَبٌ أَوْ جُوعٌ أَوْ كُلُّفُوا أَمْرًا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ يَتَطَيَّرُونَ بِمَوْسِي وَيَتَمَلَّؤُونَ مِنْهُ، وَيَذَكُّرُونَ مِصْرَ وَيَحِنُّونَ إِلَى الْعَوْدَةِ إِلَيْهَا، وَلَمَّا غَابَ عَنْهُمْ أَيَّامًا لِمُنَاجَاهَةِ رَبِّهِ اتَّخَذُوا لَهُمْ عِجَالًا مِنْ حُلُبِّهِمُ الَّذِي هُوَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِمْ، وَعَبَدُوهُ لِمَا رَسَخَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ إِكْبَارٍ سَادَتْهُمُ الْمِصْرِيَّنَ، وَإِعْظَامَ مَبْعُودِهِمُ الْعِجْلِ (أَيِّسَ).

وكانَ اللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا تُطِيعُهُمْ نُفُوسُهُمُ الْمَهِينَةُ عَلَى دُخُولِ أَرْضِ الْجَبَارِيْنَ، وَأَنَّ وَعْدَهُ تَعَالَى لِأَجْدَادِهِمْ إِنَّمَا يَتَمَّ عَلَى وِفْقِ سُنْتِهِ فِي طَبَيْعَةِ الْاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ، إِذَا هَلَكَ ذَلِكَ الْجِيلُ الَّذِي نَشَأَ فِي الْوَثَنِيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ لِلْبَشَرِ وَفَسَادِ الْأَخْلَاقِ، وَنَشَأَ بَعْدُهُ جِيلٌ جَدِيدٌ فِي حُرْبِيَّةِ الْبَدَاوِةِ وَعَدْلِ الشَّرِيعَةِ وَنُورِ الْآيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ" [98].

إنَّ مُوسَى -عليه الصلاة والسلام- في سيناء لم يواجه طاغوت فرعون وملئه، لأنَّ المعركة انتهت مع الطاغوت -كما يقول سيد قطب؛ ولكنه واجه معركة أخرى -لعلها أشد وأقسى وأطول أمداً- مع "رواسب الذل الذي أفسد طبيعة بنى إسرائيل، وملأها بالالتواء من ناحية، وبالقسوة من ناحية، وبالجبن من ناحية، وبالضعف عن حمل التبعات من ناحية.

وتركتها مهللة بين هذه النزعات جميعاً.. فليس أفسد للنفس البشرية من الذل والخضوع للطغيان طويلاً، ومن الحياة في ظل الإرهاب والخوف والتخيّف والالتواء لتفادي الأخطار والعقاب، والحركة في الظلام، مع الذعر الدائم والتوقع الدائم للبلاء! ولقد عاش بنو إسرائيل في هذا العذاب طويلاً عاشوا في ظل الإرهاب وفي ظل الوثنية الفرعونية كذلك. عاشوا يقتل فرعون أبناءهم ويستحيي نساءهم. فإذا فتر هذا النوع البشع من الإرهاب الوحشي، عاشوا حياة الذل والسخرة والمطاردة على كل حال.

وفسدت نفوسهم وفسدت طبيعتهم والتوت فطرتهم وانحرفت تصوراتهم وأمتلأت نفوسهم بالجبن والذل من جانب، وبالحدق

والفسدة من الجانب الآخر.. وهم جانبان متلازمان في النفس البشرية حيثما تعرضت طويلاً للإهاب والطغيان.

لقد كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ينظر بنور الله، فيرى حقيقة تركيب النفس البشرية وطبعتها، وهو يقول لعمالي على الأمصار موصياً لهم بالناس: ولا تضرروا أبشرهم فتلذوا بهم.. كان يعلم أن ضرب البشرة يذل الناس. وكان الإسلام في قلبه يريد منه ألا يذل الناس في حكومة الإسلام وفي مملكة الله. فالناس في مملكة الله أعزاء، ويجب أن يكونوا أعزاء وألا يضرهم الحكام فيذلوهم، لأنهم ليسوا عبيداً للحكام، إنما هم عبيد لله أعزاء على غير الله" [99].

لقد ترسخ الطغيان الفرعوني في نفوس بني إسرائيل حتى باتت نفوسهم "تواجه الحرية بكل رواسب الذل، وتواجه الرسالة بكل رواسب الجاهلية، وتواجه موسى - عليه الصلاة والسلام - بكل الالتواءات والانحرافات والانحلالات والجهالات التي ترسبت فيها على الزمن الطويل!..." إنها "متاعب كل صاحب دعوة، يواجه نفوساً طال عليها الأمد، وهي تستمر في حياة الذل تحت قهر الطاغوت، وبخاصة إذا كانت هذه النفوس قد عرفت العقيدة التي يدعوها إليها، ثم طال عليها الأمد، فبها صورتها، وعادت شكلاً لا روح فيه!

إن جهد صاحب الدعوة - في مثل هذه الحال - لهو جهد مضاعف. ومن ثم يجب أن يكون صبره مضاعفاً كذلك.. يجب أن يصبر على الالتواءات والانحرافات، وثقلة الطبع وتفاهة الاهتمامات ويجب أن يصبر على الانكماش الذي يفاجئه في هذه النفوس بعد كل مرحلة، والاندفاع إلى الجاهلية عند أول بادرة! ولعل هذا جانب من حكمة الله في عرض قصة بني إسرائيل على الأمة المسلمة، في هذه الصورة المفصلة المكررة. لترى فيها هذه التجربة. كما قلنا من قبل. ولعل فيها زاداً لأصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل" [100].

"فعلينا أن نعتبر بهذه الأمثال التي بينها الله تعالى لنا، ونعلم أن إصلاح الأمم بعد فسادها بالظلم والاستبداد، إنما يكون بإنشاء جيل جديد يجمع بين حرية البداوة واستقلالها وعزمها، وبين معرفة الشريعة والفضائل والعمل بها. وقد كان يقوم بهذا في العصور السالفة الأنبياء، وإنما يقون بها بعد ختم النبوة ورثة الأنبياء، الجامعون بين العلم بسنن الله في الاجتماع وبين البصيرة والصدق والإخلاص في حب الإصلاح وإيثاره على جميع الأهواء والشهوات، ومن يضل الله فما له من هاد" [101].

الحرية ملك.. ترفضه نفوس الأذلاء!

سجل القرآن الكريم في مسيرة موسى - عليه الصلاة والسلام - وهو يواظب همة بني إسرائيل أخباره عنهم أن الله جعلهم ملوكا! وهي كناية كما ذكر بعض علماء التفسير عن كونهم أحرازا.

قال تعالى: ((وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءً وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَأَتَكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. يَا قَوْمَ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنَقَّلُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَائِلُونَ)) [102].

يقول محمد رشيد رضا: "جعلهم ملوكاً، لو لا ما ورد في التفسير المأثور عن النبي - صلى الله عليه وسلم، والصحابية والتبعين، لكانَت هذه النعمة موضع اشتباه عند المتأخرین الصعفاء في فهم العربية؛ لأنَّ بني إسرائيل لم يكن فيهم ملوك على عهد موسى؛ وإنما كان أول ملوكهم بالمعنى العُرْفِي لـكلمة مَلِكٌ وَمُلُوكٌ شَافِلُ بْنُ قَيسٍ، ثُمَّ دَاؤُدُّ الَّذِي جَمَعَ بين النبوة والملك. وإنَّ مَنْ يَفْهَمُ العَرَبِيَّةَ حَقَّ الْفَهْمِ يَجْزِمُ بِأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرْدَادُ أَنَّهُ جَعَلَ أُولَئِكَ الْمُخَاطَبِينَ رُؤْسَاءَ لِلْأَمْمِ وَالشُّعُوبِ يَسُوسُونَهَا وَيَحْكُمُونَ بَيْنَهَا، وَلَا أَنَّهُ جَعَلَ بَعْضَهُمْ مُلُوكًا، لَأَنَّهُ قَالَ: ((وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا)) وَلَمْ يَقُلْ: وجَعَلَ فِيكُمْ مُلُوكًا، كَمَا قَالَ: ((جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءً)); فَظَاهِرُ هَذِهِ الْعِبَارَةِ أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ صَارُوا مُلُوكًا، وَإِنْ أَرِيدَ بِكُلِّ الْمَجْمُوعِ لَا الْجَمِيعِ، أَيْ إِنْ مُعْظَمَ رِجَالِ

الشَّعْبِ صَارُوا مُلُوكًا، بَعْدَ أَنْ كَانُوا كُلُّهُمْ عَبِيدًا لِلْقِبْطِ، بَلْ مَعْنَى الْمَلِكِ هُنَا الْحُرُّ الْمَالِكُ لِأَمْرِ نَفْسِهِ وَتَدْبِيرِ أَمْرِ أَهْلِهِ، فَهُوَ تَعْظِيمٌ لِلنِّعْمَةِ الْحُرْبَيَّةِ وَالْإِسْتِقْلَالِ بَعْدَ ذَلِكَ الرِّقَّ وَالْإِسْتِعْبَادِ، يَدْلُلُ عَلَى ذَلِكَ التَّفْسِيرُ الْمَأْثُورُ؛ فَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرَى، مَرْفُوعًا عِنْدَ أَبِي حَاتِمٍ: (كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِذَا كَانَ لِأَحَدِهِ خَادِمٌ وَدَائِبٌ وَامْرَأً كُتُبَ مَلِكًا)، وَفِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: (مَنْ كَانَ لَهُ بَيْتٌ وَخَادِمٌ فَهُوَ مَلِكٌ)، رَوَاهُ أَبُو دَاؤِدَ فِي مَرَاسِيلِهِ، تَفْسِيرًا لِلْآيَةِ يَلْفَظُ (زَوْجَةٌ وَمَسْكِنٌ وَخَادِمٌ)، وَرَوَى أَبُونِ جَرِيرِ مِنْهُ أَنَّ أَبِنِ عَبَّاسٍ وَعَنْ مُجَاهِدٍ؛ وَعَنْ أَبِنِ عَبَّاسٍ رِوَايَةً أُخْرَى سَتَّائِي بَنَصِّهَا، وَقَدْ صَحَّحُوا سَنَدَهَا، وَالْمَرْفُوعُ ضَعِيفٌ السَّنَدُ. وَالْمَعْنَى الْجَامِعُ لِهَذِهِ الْأَقْوَالِ أَنَّ الْمُرْدَادَ بِالْمُلُوكِ هُنَا: الْإِسْتِقْلَالُ الْذَّاتِيُّ، وَالْتَّمَتُّعُ بِنَحْوِ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الْمُلُوكُ مِنَ الرَّاحَةِ وَالْحُرْبَيَّةِ فِي التَّصْرِفِ وَسِيَاسَةِ الْبَيْوْتِ، وَهُوَ مَجَازٌ تَسْتَعْمِلُهُ الْعَرَبُ إِلَى الْيَوْمِ فِي جَمِيعِ مَا عَرَفَنَا مِنْ بِلَادِهِمْ، يَقُولُونَ لِمَنْ كَانَ مُهْنَتًا فِي مَعِيشَتِهِ، مَالِكًا لِمَسْكِنِهِ، مَخْدُومًا مَعَ أَهْلِهِ، فَلَانْ مَلِكٌ، أَوْ مَلِكٌ زَمَانِهِ؛ أَيْ يَعِيشُ عِيشَةَ الْمُلُوكِ، وَتَرَى مِثْلَ هَذَا الْإِسْتِعْمَالِ الْمَجَازِيِّ فِي رُؤْيَا يُوحَنَّا، قَالَ: (1: 6 وَجَعَنَا مُلُوكًا وَكَهَنَّا).

وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُ جَعَلَهُمْ مُلُوكًا بِالْقُوَّةِ وَالْإِسْتِعْدَادِ بِمَا آتَاهُمْ مِنَ الْحُرْبَيَّةِ وَالْإِسْتِقْلَالِ وَشَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ الْعَادِلَةِ الَّتِي يَرْتَقُونَ بِهَا فِي مَرَاقِيِ الْاجْتِمَاعِ، وَهُوَ يُشارَةٌ بِأَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْهُمْ مُلُوكٌ بِالْفِعْلِ؛ لَأَنَّ مَا اسْتَعْدَدَ لَهُ الْأُمَّةُ مِنْ ذَلِكَ فِي مَجْمُوعِهَا لَبُدَّ أَنْ يَظْهَرَ أَثْرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ أَفْرَادِهَا. وَهَذَا الْمَعْنَى لَا يُعَارِضُ مَا قَبْلَهُ، بَلْ يُجَامِعُهُ وَيَتَقَوَّلُ مَعَهُ، فَإِنَّ تِلْكَ الْمَعِيشَةِ الْمَنْزَلِيَّةِ الرَّاضِيَّةِ هِيَ الْأَصْلُ فِي الْإِسْتِعْدَادِ لِهَذِهِ الْعِيشَةِ الثَّانِيَّةِ، عِيشَةِ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِ؛ فَإِنَّ الشُّعُوبَ الَّتِي يَفْسُدُ فِيهَا نِظامُ الْمَعِيشَةِ الْمَنْزَلِيَّةِ لَا تَكُونُ أُمَّمًا عَزِيزَةً قَوِيَّةً؛ فَهِيَ إِذَا كَانَ لَهَا مُلُوكٌ تُضِيَّعُهُ، فَكَيْفَ تَكُونُ أَهْلًا لِتَأْسِيسِ مُلُوكٍ جَدِيدِ؟! فَلِيَعْتَبِرُ الْمُسْلِمُونَ بِهَذَا، وَلِيَنْظُرُوا أَيْنَ هُمْ مِنَ الْعِيشَةِ الْأَمْلَيَّةِ الَّتِي وَصَفَنَاها" [103].

وقد خيب بنو إسرائيل ظن موسى بهم، حيث غابت على أنفسهم ذلة العبودية، واستكانة المستضعف، وفضلوا القعود عن الجهاد وتحمل أعبائه؛ فإنهم لم يستطعوا التخلص من ربقة القوة المادية والسمو بأرواحهم إلى فضاء الحرية، لأنه "متى عجزت القوة المادية عن استدلال القلوب فقد ولدت الحرية الحقيقية في هذه القلوب" [104].

يقول سيد قطب في ظلاله وهو يحكي كيف أن أبشار المصريين ضربت حتى ذلوا، في عهود الطاغوت الفرعوني، ثم في عهود الطاغوت الروماني: "ولم يستنقذهم من هذا الذل إلا الإسلام، يوم جاءهم بالحرية، فأطلقهم من العبودية للبشر بالعبودية لرب البشر؛ فلما أن ضرب ابن عمرو بن العاص -فتح مصر وحاكمها المسلم- ظهر ابن قبطي من أهل مصر -لعل سياط الرومان كانت آثارها على ظهره ما تزال، غضب القبطي لسوء واحد يصيب ابنه من ابن فاتح مصر وحاكمها، وسافر شهرًا على ظهر ناقة، ليشكو إلى عمر بن الخطاب - الخليفة المسلم-. هذا السوط الواحد الذي نال ابنه! وكان هو يصبر على السياط منذ سنوات قلائل في عهد الرومان. وكانت هذه هي معجزة البعث الإسلامي لنفوس الأقباط في مصر، وللنفوس في كل مكان، حتى لمن لم يعتنقا الإسلام. كانت هذه هي معجزة هذا البعث الذي يستنقذ الأرواح من ركام آلاف السنين من الذل القديم، فتنتفض هكذا انتفاضة الكرامة التي أطلقها الإسلام في أرواحهم، وما كان غير الإسلام ليطلقها في مثل هذه الأرواح" [105].

إن الحرية تنطلق ابتداءً من الشعور النفسي بها باعتبارها هبة إلهية لا حقاً وضعيًا، فإذا غاب هذا المعنى ارتكس الإنسان في براثن العبودية. وإذا كان واهب الحرية هو الله ابتداءً فإنه المستحق للتعبد له لا لسواء، وبهذا يتحرر الإنسان إلا من خالقه ومالكه.

يقول سيد: "ما يتحرر حفأ إلا من يخلص له كله، ويفر إلى الله بجملته، وينجو من العبودية لكل أحد، وكل شيء وكل قيمة، فلا تكون عبوديته إلا لله وحده. وهذا هو التحرر إذن، وما عداه عبودية وإن تراءت في صورة الحرية! ومن هنا يبدو التوحيد

هو الصورة المثلى للتحرر. فما يتحرر إنسان وهو يدين لأحد غير الله بشيء ما في ذات نفسه، أو في مجريات حياته، أو في الأوضاع والقيم والقوانين والشائع التي تصرف هذه الحياة. لا تحرر وفي قلب الإنسان تعلق أو تطلع أو عبودية لغير الله، وفي حياته شريعة أو قيم أو موازين مستمدة من غير الله. وحين جاء الإسلام بالتوحيد جاء بالصورة الوحيدة للتحرر في عالم الإنسان". [106]

ولأن "أكرم ما في الإنسان" هي "حرية الاعتقاد"، بحسب سيد: "فالذي يسلبه هذه الحرية، ويفتنه عن دينه فتنه مباشرة أو بالواسطة، يعني عليه ما لا يجيء عليه قاتل حياته؛ ومن ثم يدفعه بالقتل". [107]

"والضعفاء" هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله، حين تنازلوا عن حريةهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه، وجعلوا أنفسهم تبعاً للمستكبرين والطغاة، ودانوا لغير الله من عبيده، واختاروها على الدينونة لله. والضعف ليس عذراً بل هو الجريمة، فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعزون به والعزة لله. وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعاً عن نصيبيه في الحرية - التي هي ميزة ومناط تكريمه، أو أن ينزل كارهاً. والقوة المادية - كائنة ما كانت - لا تملك أن تستعبد إنساناً يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الإنسانية. فقصاري ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد، تؤديه وتتعبه وتكبله وتحبسه؛ أما الضمير، أما الروح، أما العقل، فلا يملك أحد حبسها ولا استدلالها، إلا أن يسلّمها صاحبها للحبس والإذلال!

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين في العقيدة، وفي التفكير، وفي السلوك؟! من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه؟!
لا أحد. لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة.

فهم ضعفاء لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة، ولا لأنهم أقل جاهماً أو مالاً أو منصباً أو مقاماً.. كلا، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفاً يلحق صفة الضعف بالضعفاء.

إنما هم ضعفاء لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعزازهم بأخص خصائص الإنسان! إن المستضعفين كثرة، والطواقيت قلة. فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة؟ وماذا الذي يخضعها؟ إنما يخضعها ضعف الروح، وسقوط الهمة، وقلة النخوة، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان!

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير. فهي دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أرادت. فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان!

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء. وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة! والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم: ((إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟)). [108]

وإذا كان "من المعقول والثابت بالتجارب" أن سوء حال المؤمنين وأهل الحق في أي حال من ضعف أو فقر أو عمل مذموم، يجعلهم موضعأً أو موضوعاً لافتتان الكفار وأهل الباطل بهم، باعتقاد أنهم هم خير منهم، كما قال تعالى: ((وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهُوَلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا))؛ وقال: ((وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِيَعْضُعُ فِتْنَةً أَنْصَبْرُونَ)). [109] .. فكيف إذا خذل أهل الحق حقهم وكفروا نعمة ربهم؛ وجعلوا من أنفسهم أذلة صاغرين وعبيداً مستضعفين؟!

الحرية هدف للجهاد:

إن خطاب الله تعالى للإنسان، وشرائعه التي أوجبها عليها، تهدف فيما تهدف لترسيخ حرية الإنسان، كي لا يقدم على أمر من

غير نية خالصة وهدف صحيح وإيمان قائم. فهي تنتزعه من كل القيود والأغلال والآثار وتبعث في نفسه الانتعاش ليكون سيداً في هذا الكون كما أراد الله له أن يكون: ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعَلْتُ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)) [110]؛ ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيَّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّا نَحْلَقُنَا تَفْضِيلًا)) [111].

ومراد الله تعالى من فرض الجهاد على الأمة المسلمة، متى ما تمكنت من إقامة مجتمعها ودولتها، وامتلكت القدرة على المواجهة، وعزمت عليها بمنطق شوروي، هو تحطيم كل الحاجز والقيود التي تحول دون وصول الناس لدعوة الحق وعرضها عليهم، والقضاء على كل سلطة تحول بينهم وبين الدخول في هذا الدين إن هم رغبوا فيه.

فليست غاية الجهاد القتل لمجرد القتل، بل هو وسيلة يتم من خلالها عرض الخيارات المنطقية للقوى المناوئة، فإما أن تدخل في الإسلام وتلتزم بشرائعه، وإما أن تخضع لسلطانه وإن بقت على دينها ومعتقداتها، وإما أن يكون السيف الحكم. وينترك الناس أمام هذه الخيارات أحراضاً، حتى وإن اختاروا البقاء على الكفر والخضوع لسلطان الإسلام بدفع الجزية. وبهذه النفسية خرجت جيوش الإسلام تفتح البلدان لتنقول للناس: كونوا أحرازاً وإن كانوا ندعوكم لأعظم مراتب الحرية العبودية لله! فإذا اعتقدوا هذا الدين ودخلوا فيه اختياراً، بعد معرفة وفهم، لم يكونوا مخيرين في الخروج منه، لعدة اعتبارات: الأولى: أن دخولهم فيه التزام منهم مؤيد به، كما هو معلوم من مضمون رسالة الإسلام. ولا يحق للمرء التراجع عمّا التزم به، والا تحمل مسئولية إخلاله بالالتزام.

الثانية: أن دخوله خروج من العبودية إلى الحرية الحقة، واعتراف بالعبودية المطلقة لله، والخروج منه ردة عن العبودية المطلقة لله إلى عبودية غيره، وتخلى عن التكريم الإلهي للإنسان بالحرية والخطاب! وفي ذلك دعوة للنفوس الضعيفة لدواعي العبودية الباطلة وتجريء عليها، فكان لابد من سد باب الفتنة على الناس، فإنه لا قيمة للنفس البشرية بدون الأمرتين: الحرية والتکلیف.

وبذلك يكون الدين لله، أي الدينونة في الأرض، فلا طغاة أو مستبدون أو جبارون يصدون عن الحق وينزلون عبيده ويستضعفونهم ظلماً وقهراً. وليس المقصود بالدين هنا العقيدة والتعبد الشرائي وإنما السلطان والطاعة؛ حيث تكون كلمة الله هي العليا. فإذا تحقق ذلك لم تكن في الأرض قوة أو سلطة تحجب نور الله وهداه عن عباده، أو تضلهم عن سبيله، أو تحرّمهم من اللحاق برکابه.

إن الإسلام يحارب الإكراه تحت أي اسم وبأي ذريعة كانت: ((لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكُفُرُ بِالظَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرُوقَ الْوُثْقَى لَا إِنْفَصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعُ عَلِيهِ)) [112]، وينبه حامل الرسالة لهذه الحقيقة: ((وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَمَّا نَمَّ مِنَ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)) [113]، ((.. وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَهَارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدًا)) [114]، ((فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّطٍ)) [115].

وإذا لم يتمكن المسلم -أو الفئة المسلمة- أن يعلن عن معتقده وأن يمارس شعائر دينه بأمان ودون تضييق، بحيث تقوم مصالحة الدنيا دون أن يفتتن في دينه، وجبت عليه الهجرة -إذا كان مستطيناً- إلى أي بلد يمكنه فعل ذلك بحرية وأمان. فالهجرة مقابل الفتنة في الدين، حتى ولو كانت إلى بلد كافر يوجد فيه الأمان والعدل والحرية، كما كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة. يقول تعالى: ((يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَلَا يَأْبَايِ فَاعْبُدُونِ)) [116].

ومتى تخلى الإنسان عن حريته في اعتقاد ما يراه حقاً، وممارسة ما يراه صواباً، وأثر الذلة والهوان ظلم نفسه: ((إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا كُنْ فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتَهَاجِرُوا فِيهَا فَأَوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَلَدَانِ لَا يَسْتَطِعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا. فَأَوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا. وَمَنْ يُهَا جِرْ في سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدُ فِي الْأَرْضِ مُرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً

وَمَن يَخْرُج مِن بَيْتِه مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)) [117].

الخلاصة:

نخلص مما سبق أن لا تعارض البتة بين الحرية والشريعة، فال الأولى هبة إلهية للإنسان استحق معها مخاطبته وتكتيفه بالشريعة. لهذا كان جوهر رسالة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هو تمكين الناس من هذه الهبة ليخاطبوا بالرسالة، بعيداً عن الخوف والترهيب، والإكراه والجبر. ومتي نزعت الحرية من الإنسان واستضعف واستذل واستبعد نزع عنه مقوم من مقومات تلقي الرسالة، لأنه والحاله هذه يكون مسخاً غير صالح للخطاب والتکليف. لذلك فإن تکاليف الشريعة في حق المسلم العبد (أي الرقيق) ليست هي ذاتها في حق المسلم الحر؛ فقد وضع عنه منها نظراً لحالته الوضعية.

وإن العاملين في حقل الدعاوة الإسلامية، المطالبين اليوم بحرية الشعوب العربية والإسلامية عموماً، لا يهدفون بمناداتهم للحرية دعوة الناس للكفر وإن وقع بعضهم في الكفر[118]، بل هدفهم استعادة الخصيصة الربانية التي كرم الله تعالى بها الإنسان في النفس البشرية لتمتلك إرادتها في اعتقاد ما تؤمن به، وممارسة ما ترتضيه من شعائر وسلوك.

وإذا وجب الجهاد وإذهاق النفوس المؤمنة لتحرير البشر، وإخراج الكفار من قبضة قوى الجبروت والطغيان ليختاروا بعد ذلك بين الإسلام والكفر(!)، مع قيام سلطان دولة الإسلام وتمكنها من قهرهم، فلأنّ يناضل دعاة الإسلام اليوم لتحرير شعوب المنطقة من جبروت وطغيان الأنظمة والحكومات -وعامتهم من المسلمين-. أوجب؛ فإنّ غاية الهجرة تحرير المسلمين من مثل هذه القيود بخروجه من أرضه، وتحريره في بلده إذا أمكن أولى، خاصة إذا لم يُمكّن الدعاة والعاملين إلا ذلك.

وإذا كانت إقامة الشريعة على الوجه الأكمل والأشمل مقدورة بعد ذلك فهو نور على نور؛ وإنما يسع العلماء ما يسع الأنبياء مع أقوامهم.

يقول ابن تيمية: "إن من المسائل مسائل جوابها السكوت كما سكت الشارع في أول الأمر بأشياء والنهي عن أشياء حتى علا الإسلام وظهر".

فالعالم في البيان والبلاغ كذلك، قد يؤخر البيان والبلاغ لأنشياء إلى وقت التمكّن كما أخر الله سبحانه إنزال آيات وبيان أحكام إلى وقت تمكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. تسلি�ماً إلى بيانها.

يبين حقيقة الحال في هذا أن الله يقول: (وَمَا كَانَ مَعْنَبِينَ حَتَّى نُبَعِثَ رَسُولًا). والحجّة على العباد إنما تقوم بشيئين: يشرط التمكّن من العلم بما أنزل الله، والقدرة على العمل به.

فأمّا العاجز عن العلم -كالمجنون أو العاجز عن العمل- فلا أمر عليه ولا نهي؛ وإذا انقطع العلم ببعض الدين أو حصل العجز عن بعضه كان ذلك في حق العاجز عن العلم أو العمل بقوله كمن انقطع عن العلم بجميع الدين أو عجز عن جميعه - كالجنون مثلًا.

وهذه أوقات الفترات فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمّراء أو مجموعهم ما كان بيانه لما جاء به الرسول شيئاً فشيئاً بمنزلة بيان الرسول لما بعث به شيئاً فشيئاً؛ ومعلوم أن الرسول لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، ولم تأت الشريعة جملة كما يقال: إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطيع.

فكذلك المجدد لدينه والمحيي لسنّته لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، كما أن الداخـل في الإسلام لا يمكن دخوله أن يلقـن جميع شرائـعه ويؤـمر بها كلـها؛ وكذلك التائب من الذنـوب والمتعلـم والمسترشـد لا يمكن في أول الأمر أن يؤـمر بجميع الدين ويذكر له جميع العلم، فإنه لا يطـيق ذلك، وإذا لم يطـقه لم يكن واجـباً عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجـباً لم يكن للعالـم والأمـير أن يوجـبه جميعـه ابـداء بل يعـفو عن الأمرـ والنـهي بما لا يمكن علمـه وعملـه إلى وقت الإـمكان كما عـفا الرـسول عـما عـفا عـنه إـلى وقت بيانـه.

ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات لأن الوجوب والحرم مشروط بإمكان العلم والعمل وقد فرضنا انتفاء هذا الشرط. فتبرر هذا الأصل فإنه نافع.

ومن هنا يتبيّن سقوط كثير من هذه الأشياء وإن كانت واجبة أو محرمة في الأصل لعدم إمكان البلاغ الذي تقوم به حجة الله في الوجوب أو التحرم فإن العجز مسقط للأمر والنفي وإن كان واجبا في الأصل والله أعلم". [119]

وعليه فإن منطق العقل والفطرة والشرع يدل على أن الحرية أولاً لو كانوا يعقلون.

[1] الطلاق: ج 17/3918 - 6/3917.

[2] رواه مسلم.

[3] المائدة: 7.

[4] رواه ابن ماجة في سننه، عن ابن عباس، وكذلك الترمذى في سننه، وابن حبان وابن خزيمة في صحيحهما، وصححه الألبانى.

[5] تفسير الشعراوى: ج 14/8514.

[6] الدخان: 17-21.

[7] الشورى: 23.

[8] تفسير ابن كثير: ج 141/7.

[9] الصدآن هما اللذان لا يجتمعان ويمكن خلو المجل منها. كالسود والبياض باعتبارهما وصفاً لشيء، فهو يمكن أن يكون أبيضاً أو أسوداً، وفي حال كان موصوفاً بأحدهما لم يجز وصفه بالآخر، لكن يجوز وصفه بغيرهما كالإحمرار مثلاً. والنقيضان هما اللذان لا يجتمعان ولا يمكن خلو المجل منها. كالوجود والعدم باعتبارهما وصفاً لشيء، فهو إما أن يكون موجوداً أو معدوماً، ولا يمكن وصفه أنه غير موجود غير معروف، وكالحياة والموت، والحركة والسكن، إذا علم أن الموصوف خلا من أحدهما ثبت الآخر قطعاً.

[10] الأحزاب: 64-68.

[11] سباء: 31-33.

[12] يقول سيد قطب: "إن الإسلام لا يقر مبدأ الحرية الدينية وحده، ولا ينهي عن الإكراه على الدين فحسب؛ إنما يقرر ما هو أبعد من ذلك كله. يقرر السماحة الإنسانية المستمدّة من توجيه الله سبحانه، يقرر حق المحتاجين جميعاً في أن ينالوا العون والمساعدة، ما داموا في غير حالة حرب مع الجماعة المسلمة". دون نظر إلى عقيدتهم". الطلاق: ج 1/315.

[13] الدخان: 30-31.

[14] ((سُوْمُونُكُ)) هو من سَامَةَ خَسْفًا، إِذَا أَوْلَأَهُ ظُلْمًا، قَالَ عَمْرُو بْنُ كُلُّثُومٍ: إِذَا مَا الْمَكِيلُ سَامَ النَّاسَ خَسْفًا *** أَبَيْنَا أَنْ نُقْرَبَ الْخَسْفَ فِينَا

ومعنى ((سوء العذاب)), أشدّ وأصعبه، كأنْ قُبْحَةَ زَادَ." واعلم أنَّ كُونَ الإنسانَ تَحْتَ يَدِ الْغَيْرِ، بِحَيْثُ يَصْرَفُ فِيهِ كَمَا يَشَاءُ، لَا سِيمَّا إِذَا اسْتَعْمَلَهُ فِي الْأَعْمَالِ الشَّائِئَةِ الصَّنِيعَةِ الْقَدِيرَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ مِنْ أَشَدَّ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ، حَتَّى إِنَّ مِنْ هَذِهِ حَالَتَهُ رُبُّمَا تَمَّتِ الْمَوْتُ". تفسير الرازي: ج 3/505.

[15] البقرة: 49.

[16] الأعراف: 141.

[17] إبراهيم: 6.

[18] غافر: 23-25.

[19] الأعراف: 127.

[20] طه: 44-47.

[21] الدخان: 24-27.

[22] الأعراف: 104-105.

[23] القمر: 4.

[24] الدخان: 20.

[25] يونس: 83.

[26] الشعراة: 18-19.

[27] الشعراة: 18-22.

[28] انظر: تفسير الطبرى: ج 161/7؛ وتفسير التعالى: ج 559/17-560؛ وتفسير الطبرى: ج 7/161.

[29] انظر: تفسير الرازى: ج 24/497؛ وتفسير الواحدى: ج 3/352؛ وتفسير البغوى: ج 3/465؛ وتفسير أبو السعود: ج 6/238.

[30] انظر: تفسير مجاهد: ج 1/510؛ وتفسير الطبرى: ج 560/17-561؛ وتفسير ابن أبي حاتم: ج 8/2756؛ وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوى: ج 19/1؛ وتفسير الماوردى: ج 168/4.

[31] تفسير الواحدى: ج 352/3.

- [32] تفسير يحيى بن سلام: ج 499/2.
- [33] تفسير البغوي: ج 465/3.
- [34] تفسير ابن كثير: ج 138/6.
- [35] تفسير القاسمي: ج 451/7.
- [36] أضواء البيان: ج 89/6.
- [37] طه: 47.
- [38] تفسير الشعراوي: ج 9287/15.
- [39] تفسير الشعراوي: ج 10552/17.
- [40] التحرير والتنوير: ج 63/18.
- [41] الدخان: 18.
- [42] تفسير الطبرى: ج 24/22-25.
- [43] تفسير الشعابى: ج 196/5.
- [44] الدخان: 21.
- [45] تفسير ابن عطية: ج 70/5-71.
- [46] تفسير السعدي: ج 771/1.
- [47] التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة: ج 194/13 - 195.
- [48] المؤمنون: 47.
- [49] التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984: ج 295/25-296.
- [50] التحرير والتنوير: ج 295/25-296.
- [51] طه: 47.
- [52] تفسير الماتريدي: ج 284/7.
- [53] تفسير الماتريدي: ج 401/2. وانظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ج 28/3-29. تفسير السمرقندى: ج 401/2.
- [54] تفسير ابن عطية: ج 227/4. وانظر: تفسير الشعابى: ج 57/4. وتفسير ابن جزى: ج 8/2.
- [55] انظر: تفسير الوجيز للواحدى: ج 696/1. تفسير الوسيط للواحدى: ج 208/3. تفسير البغوى: ج 333/3. تفسير السمعانى: ج 263/3. تفسير الرازى: ج 495/24. تفسير الشعابى: ج 246/6.
- [56] انظر: زاد المسير في علم التفسير: ج 336/3. تفسير النسفي: ج 367/2.
- [57] تفسير يحيى بن سلام: ج 498/2.
- [58] يونس: 83.
- [59] الأعراف: 127.
- [60] تفسير السعدي: ج 506/1.
- [61] تفسير السعدي: ج 589/1.
- [62] تفسير القاسمى: ج 138/7.
- [63] انظر: روح البيان: ج 392/5؛ والتفسير المنير للزجلي: ج 14/16.
- [64] يونس: 83.
- [65] تفسير ابن كثير: ج 287/4.
- [66] ج 137.
- [67] من العجيب أن سيد قطب -رحمه الله- ذهب إلى أنَّ موسى "لم يكن رسولاً إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه ويأخذهم بمنهج رسالته. إنما كان رسولاً إليهم ليطلب إطلاقبني إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون". وهذا كلام لا دليل عليه، بل هو يتعارض مع طبيعة الرسالة التي يبعث الله بها الأنبياء لأهل زمانهم من أي جنس كانوا. وإنَّ ما يعني أن يأخذ الله تعالى فرعون وجنده وقومه بالعذاب، ويحكم عليهم بالنار؟ وكيف يجاجهم مؤمن آنَّ فرعون يقول: ((ولَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْيَتَمَّاتِ فَمَا زَلَّمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَّكَ فَلَمْ يُلْمَعْ لَمْ يَبْيَأْنَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضْلِلُ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرَتَّبٌ)), غافر: 34. فلو لم يكونوا مخاطبين برسالته بما المعنى من هذه المحاجة؟! هذا مع صريح كثير من الآيات في أنَّ الله أرسل موسى وهارون لفرعون لدعوه للتحميد وإبلاغه ببيانات الرسالة!
- والصحيح: أنها أرسلها إلى فرعون وقومه وبني إسرائيل جميعاً، فلما أنكرهم فرعون وقومه، ووقفوا منهم موقف المكذب والمعرض والمحارب لم يكن في مخاطبتهما بشرعية معنى، لذلك جاءت الشريعة مخاطبة ببني إسرائيل بعد نجاتهم واستقلالهم بشئونهم. ولهذا فقد أخطأ في هذا الشأن أيضاً صاحب تفسير التحرير والتنوير إذ يقول: "ولم يُرسلاً بشرعية إلى القبط". ج 63/18. لأنَّ إزالة الشرائع يتعلق بوجود الأمة الملزمة بها القاعدة على إنفاذها! ولذلك قلَّ إزالة الشرائع بمكة المكرمة وكثير في المدينة.
- [68] تفسير الطلال: ج 2337/4.
- [69] تفسير الطلال: ج 2590/5.
- [70] تفسير أبي السعود: ج 19/6. وربما تضمن الأمر المعنين معاً: "وَهَذَا الْكَلَامُ يَتَضَمَّنُ أَنَّ مُوسَى أَمْرَ بِإِخْرَاجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بِلَادِ الْفَرْعَانَةِ لِقَصْرِ تَحْرِيرِهِمْ مِنْ اسْتِعْبَادِ الْمُصْرِيَّينَ". التحرير والتنوير: ج 110/19.
- [71] الدخان: 22-23.

- [72] تفسير مقاتل بن سليمان: ج 3/820.
- [73] التفسير المنبر للزحبي: ج 19/131.
- [74] تفسير المقباس من تفسير ابن عباس: ج 1/262.
- [75] الأعراف: 134.
- [76] فتح القيرين، للشوكتاني: ج 2/272.
- [77] تفسير مفاتيح الغيب: ج 14/347 - 348.
- [78] البحر المحيط: ج 5/152.
- [79] تفسير الظلال: ج 4/2340.
- [80] المؤمنون: 47.
- [81] تفسير الطبرى: ج 35/19 - 36. تفسير النسفي: ج 2/470. تفسير الرازى: ج 23/279. تفسير الشعراوى: ج 100/48. وفي قولهم هذا دليل على أن الله طلب منهم الإيمان كما سبق وذكرنا؛ خلافاً لمن قال إن موسى لم يدعهم إلى الإيمان، ولا إلى التزام شرعيه. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان: ج 5/129.
- [82] تفسير القاسمي: ج 7/290.
- [83] الأعراف: 127.
- [84] البحر المحيط: ج 5/143.
- [85] مفاتيح الغيب للرازى: ج 14/341. وانظر: زاد المسير: ج 2/45.
- [86] انظر: البحر المحيط: ج 5/143. وفُرِيَ ((ويَدْرُك)) بالجزم. وقرأ أنس ونَدَرَكَ بِالْتُّوْنِ وَالْتُّصْبِ أَيْ يَصْرُفُنَا عَنْ عِبَادَتِكَ فَنَذَرُهَا.
- [87] انظر: البحر المحيط: ج 9/250.
- [88] تفسير المنار: ج 70/9.
- [89] غافر: 25.
- [90] تفسير الرازى: ج 27/506. والبحر المحيط: ج 9/249.
- [91] انظر: تفسير البغوى: ج 4/109.
- [92] البحر المحيط: ج 5/144.
- [93] تفسير ابن كثير: ج 7/139.
- [94] التفسير القرآنى: ج 5/461.
- [95] غافر: 26.
- [96] الدخان: 22 - 31.
- [97] الظلال: ج 6/3904.
- [98] تفسير المنار: ج 6/279.
- [99] الظلال: ج 1365 - 3/1364.
- [100] ج 3/1364 - 3/1365.
- [101] تفسير المنار: ج 6/279.
- [102] المائدة: 20 - 22.
- [103] تفسير المنار: ج 6/267 - 6/268.
- [104] ج 3/1352.
- [105] ج 3/1364 - 3/1365.
- [106] الظلال: ج 1/392.
- [107] الظلال: ج 1/189.
- [108] الظلال: ج 4/2096.
- [109] تفسير المنار: ج 11/384.
- [110] البقرة: 30.
- [111] الإسراء: 70.
- [112] البقرة: 256.
- [113] يونس: 99.
- [114] ق: 45.
- [115] الغاشية: 21 - 22.
- [116] العنكبوت: 56.
- [117] النساء: 97 - 100.
- [118] ومن أ Zimmerman ذلك كمن يلزم موسى - عليه الصلاة والسلام - بکفر بنى إسرائيل وهم يقولون: ((يا موسى اجعل لنا إلهنا كما لهم إلههم)). أو وهم يبعدون العجل وينصبونه إليها: ((هذا إلهكم وإله موسى فَسَّي)). أو وهم يقولون: ((أرنا الله جهرا)). بعد أن أخرجهم من جبروت فرعون وطغيانه. وهذا لا يقال به عاقل!
- [119] مجموع الفتاوى: ج 20/59 - 61.

المصادر: